يومٌ خريفي

ابتسام عبد الله

لم يكن ذلك الصباح في ساعاته الأولى مختلفاً عن صباحات الأيّام الأربعة التي كنت قد أمضيتها في الفندق الذي حللت فيه بعد وصولي بيروت، المدينةَ التي كنت قد ابتعدت عنها طويلاً ثم آثرتُ الاستقرار فيها بعد أن تقاعدتُ عن العمل. فقد استيقظتُ من النوم، كعادتي، في ساعة مبكرة، وبعد أن اغتسلت وغيّرت ملابسي، تطلّعتُ إلى الشارع عبر زجاج الباب المؤدّي إلى الشرفة الصغيرة ووجدته خالياً من المارّة.

كان ذلك اليوم خريفيّاً مثالياً: غيوم سود متفرّقة، وأشعّة الشمس الواهية تخترقها في بعض أجزائها وتضفي عليها لوناً برّاقاً يكاد يكون فضيّاً. وما إن مضت دقائق على تأمّلي للشارع حتى بدأتْ قطراتُ المطر بالسقوط.. قطرات خفيف رأيتها تهبط ببطء وتثاقل على سطح جهاز التبريد المثبت على أرضية الشرفة. فتحت الباب وأخرجت كفّي، أتلقى بها نثيثَ المطر وأنا ساهمة غارقة في التفكير فيه. كنتُ، في الحقيقة، مشبعة بذكراه منذ وصولي المدينة، أتذكّره في شوارعها وفي مبانيها التي التصقت ذكرياتي عنها به، على الرغم من مرور خمسة وعشرين عاماً على فراقنا.

كان ذلك اليوم البعيد في الذاكرة يوماً خريفياً أيضاً. ولكنّ الأمطار راحت، حينئذ، تتساقط بقوّة وغزارة وكأنّ السماء كانت قد توقفت عن الهطول أعواماً ولم تتجمّع فيها جداولُ المطر إلاّ في ذلك الصباح الذي اتفقتُ فيه معه على السفر إلى بعلبك ضمن رحلة طلابيّة نظّمتها الكليّة التي كان يكمل فيها دراسته العليا. في هذا الفندق نفسه (فندق ناپولي) كنت أتأمّل الشارع عبر زجاج الشرفة وأنا حائرة في كيفية الذهاب إلى حيث كان ينتظرني في مقهى «الهورس شو» حيث كنّا قد اتفقنا على تناول الإفطار قبل ذهابنا إلى الكليّة والانضمام إلى الرِّحلة. لم أفكّر آنذاك كثيراً، بل لففت شعري بشال من الصوف وخرجت إلى الشارع، أقطع على قدميّ المسافة القصيرة التي كانت تفصلني عن المقهى الذي وصلت إليه، بعد دقائق، وأنا مبلّلة تماماً.

القطرات الخفيفة من مطر اليوم الآخر دفعتني إلى التفكير في الخروج والسير دون تردّد في الشارع. هبطت في الحال إلى الطابق الأرضي من الفندق وتوقفتُ كالمعتاد أمام مكتب الاستقبال من أجل تسليم مفتاح غرفتي، لكنّني وجدت المكان خالياً. فاضطررتُ إلى الانتظار والتشاغل بالنظر هنا وهناك. رأيت على المكتب الخالي سجلّ نزلاء الفندق مفتوحاً، وإلى جانبه مجموعة من الرسائل. وعندما طال انتظاري، حانت منّي التفاتةٌ إلى السجلّ المفتوح وبدأت دون أي غرض معيّن أقرأ أسماء النزلاء، وهي أسماء لم تكن في تسلسلها تعني بالنسبة لي شيئاً. وهكذا قرأتُ أسماء جورج ومتّى وأحمد ووديع ويولاندا وانطوان وأسامة. توقفتُ عند الاسم الأخير؛ فاسمه يثير في النفس المشاعر. وخطر على بالي، في تلك اللحظة، معرفة بقية اسم أسامة ذلك. مددتُ يدي إلى السجل أُدنيه منّي وقلبي يخفق بشدّة، فقرأتُ: «أسامة ابراهيم الفرحان، غرفة رقم (٥٠٨)». توقفتُ هناك دقائق طويلة وقد شلّني الارتباك. هل يعقل الأمر! أسامة ابراهيم الفرحان دون غيره يحلّ في الطابق الخامس من الفندق وأنا في الطابق الرابع منه؟! وفي ارتباكي ذلك، جاء موظف الاستقبال وسمعته يلقي عليّ تحيّة الصباح ويطلب منّي الانتظار قليلاً لأنّ هناك رسالة يودّ تسليمها لي، ورأيته يبحث عنها بين مجموعة الرسائل التي كانت مكدّسة على المكتب. وفي اضطرابي قلت له بأنني في عجلة من أمري وفي إمكاني أن أتسلم الرسالة منه بعد عودتي، إذ كنت قرّرتُ أن أُمضي النهار في البحث عن شقّة مناسبة للإيجار كي أسكن فيها.

في مقهى «الهورس شو» وفي ركننا المفضّل كنت أجلس بعد قليل بأفكار مشوّشة، وكأنني كنت في انتظاره من جديد. أتراني سأرى أسامة الفرحان أخيراً وبعد أن باعدتنا الحروب زمناً طويلاً؟ أتراه سيجيب عن الأسئلة التي ظلّت معلّقة بيننا ولم أستطع تجاوزها؟ أتراني سأتعرّف عليه في الحال؟ وما نوع التغييرات التي تركتها الأعوام على وجهه وقامته وروحه وصوته؟ ما الذي جاء به إلى بيروت؟ هل هو في زيارة طارئة لها، أم أنّه سيستقرّ فيها بعد أن هدأت أوجاعها كما سأفعل أنا؟ لا بدّ أنّ بيروت قد هيّجتْ ذكرياته كما فعلت معي. سأراه بالتأكيد! سأتّصل به حال عودتي إلى الفندق واتّفق معه على اللّقاء. سنتناول طعام الغذاء معاً. هل نتناوله في الفندق كما أفعل منذ قدومي، أم في مطعم «مرّوش» القريب منه، كما اعتدنا من قبل؟ سأذهب بالتأكيد، مبكّرةً عن الموعد، قبل ساعة

مثلاً، وأجلس على مائدة جانبية أستطيع منها مراقبة الداخلين إلى المطعم. سأعرفه بالتأكيد حالما يقترب من الباب. وكيف لا أعرفه؟ مازلت أذكر ملامحه بوضوح وكأنّه لم يغب عنّي يوماً: شعر أسود قصير، بشرة سمراء، وعينان سوداوان واسعتان، وقامة طويلة. ولكن ماذا عنه؟ أتراه سيتعرّف عليّ في الحال؟

توقفتُ لحظات عن التفكير، تأمّلت فيها وجهي المرتسم على مرآة كانت تواجهني في المقهى: شعر كستنائيّ فيه شعرات بيض، ووجهٌ زُرع فيه ذلك الصباح بعضُ الحيوية والأمل. سيعرفني بالتأكيد. سيتّجه نحوي على الفور ويبادلني التحيّة. وسنجلس معاً نتذكّر أيامنا. هل سنتحدّث بلا انقطاع وينساب بيننا الكلام تلقائياً، هادئاً، مثل مياه نهر حيناً ومياه البحر الصاخب حيناً آخر؟ أم أنّنا سنخلد إلى الصمت بعد تبادل الكلمات التقليدية الأولى ثم يروح كلّ واحد منّا يبحث عن موضوع ما يطرقه من أجل تبديد ثقل الصمت الذي سيخيّم على مائدتنا في ذلك المطعم المزدحم أبداً بالروّاد والذي تضجّ جنباته بالضحكات والأحاديث والحركة ونكهة الشعراء وأصناف المقبّلات؟ ولكن، لماذا أجعل اللّقاء به في ذلك المطعم، ولماذا الظهيرة بالذات؟ بإمكاني الانتظار حتى المساء، ولا بدّ من بضع ساعات تهدأ فيها انفعالاتي وأستردّ شيئاً من هدوئي، فأفكّر مليّاً بما سأرتديه وما سأقوله. هذه مسألة مهمّة كادت أن تغيب عن بالي. يجب أن أستعدّ تماماً لهذا اللّقاء: أن أتناول طعاماً خفيفاً وقتَ الغداء، وأن أنال قسطاً من الرّاحة، إن استطعت، وأن أختار بعناية الملابسَ التي سأرتديها. سأعرّج بالتأكيد على السوق كي أشتري بلوزة بيضاء، وعليّ أن لا أتردّد في اختيار لونها؛ ستكون بيضاء، نعم اللون الذي كان يفضّل دائماً أن يراني فيه، وسأضع على كتفي شالاً من الصوف، أسود، نعم. من الأفضل أن ألقاه في المساء، وفي ذلك المطعم المطلّ على البحر عند صخرة «الروشة». سيكون الأمر أكثر شاعرية ولن يبدو الصمت، ان حلّ بيننا، ثقيلاً؛ فمن الممكن عندئذ أن يتأمّل كلّ واحد منّا البحرَ والأمواج المتلاطمة والظلمة والظلال المتحرّكة والأنوار البعيدة المنعكسة على المياه وأضواءَ السيارات المارقة التي لا تهدأ عن الحركة هناك. أعتقد أنّ الكلام بيننا لن يكون متعثّراً، بل سيكون دافئاً ومنساباً. سأحكي له عن كل ما حدث لي، وسأطلب منه أن يحدّثني عما جرى له. مازلت أذكر نبراتِ صوته، والعباراتِ الأثيرةَ لديه، وضحكته، وعطرَه، وما يحبّ من الطعام وما يكره، بل وأذكر صدى أنفاسه وصمته ووقع خطواته. فهل يا ترى بقيت تلك الأمور على حالها أم أنّه تغيّر؟

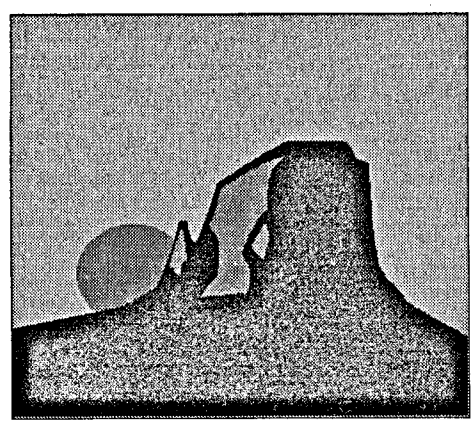

لا بدّ أن أراه اليوم وعليّ أن أبدّد كلّ ما في النفس من مشاعر القلق والخوف التي بدأتُ أحسُّ بأنّها قد أخذت تساورني خشية اللقاء. لا بدّ أنّه تغيّر كما تغيّرت أنا. فلماذا أنبش الذكريات القديمة ولا أدعها مرتاحة حيثما هجعت واستقرّت؟ ولكن، لِمَ الخوف؟! إنّه مجرّد لقاء وتبادل التحيّات والدقّ برفق على نافذة الأيام التي مضتْ دقّات، خفيفةً لا تخدشها ولا تحرّك الهواءَ المحبوسَ في داخلها. فالعمر الذي أمضيته وحيدة لم يعد يتحمّل المزيد من العواصف المزمجرة والمشاعر التي تجتاح الروح بلا هوادة.

صوت فيروز، في تلك الساعة، أخذ يعلو، وأغنيتها «سنة عن سنة» كانت قد أخذتْ تسحبني من دائرة التفكير التي غرقتُ فيها. تطلّعتُ إلى ما حولي: المقهى كان قد بدأ يمتلئ بروّاده ودبّت الحركة فيه. مددت يدي إلى قهوتي الثانية التي كانت قد بردت واحتسيْتها بسرعة وخرجت بعد أن دفعت حسابي، لأسير على مهل في الشارع الذي كان قد استيقظ من سباته وبدأ يتثاءب.

في الثانية عشرة والنصف عدتُ إلى الفندق. أخذتُ المفتاح من موظّف الاستقبال مع الرسالة التي وضعتها في حقيبتي. وفي المصعد، خطر على بالي فجأة أن أضغط على زرّ الطابق الخامس وأن أبحث عن غرفته. قلت لنفسي إنّ الأمر سهل للغاية وكلّ ما كنت أحتاج إليه هو بعض الجرأة: أنّ أدقّ على بابه، فقد يكون هناك. لكنّني لم أفعل. وتوقّف المصعد بي، كالمعتاد، في الطابع الرابع. وبعد لحظات كنت في غرفتي، أروح وأجيء فيها دون توقّف بعد أن عاد القلق ليجتاح كياني. ما فائدة رمي

حجر في بركة قد توقفت المياهُ عن الجريان فيها؟ أليس من الأفضل تجاهل المسألة والتصرّف بتلقائية وترك أمر اللّقاء للظروف والمصادفات؟ فقد ألتقي به في ساعة ما في مطعم الفندق، أو في المصعد، أو أمام مكتب الاستقبال. ولكنّني، مع تسلسل أفكاري تلك، رحتُ أهيِّئ ملابسَ الخروج: فرشت البلوزةَ البيضاء الجميلة التي اشتريتُها على السرير، وأخرجتُ الشالَ الأسوَد من خزانة الملابس، ثم جلست في حيرة من أمري: هل أتّصل به هاتفيّاً، أم أنتظر حتى العصر؟ قد يكون في هذه الساعة في الفندق، في غرفته أو ربّما كان يتناول طعام الغداء في مطعم الطابق الأرضي.

في الساعة الثانية بعد الظهر، قرّرتُ الاتّصال به. أمسكت سمّاعة الهاتف وأدرت رقم غرفته. رنّ الجرس في الغرفة التي ربّما كانت تعلو غرفتي أو تبعد عنها أمتاراً، وظلّ يدقّ فيها دون أن يجيب أحد على ندائي. وضعتُ السمّاعة في مكانها وعندئذٍ وقعت عيناي على حقيبتي التي كنت قد وضعتها على مائدة صغيرة بجوار الباب. تذكرتُ الرِّسالة. أخرجتها من الحقيبة وفتحت المظروف الأبيض وأخرجت منه، دون اهتمام، ورقةً وبدأت أقرأ:

«عزيزتي، باختصار، وصلتُ بيروت قبل ثلاثة أيّام، وليلة أمس كنت في طريقي إلى الخروج مع صديق لي عندما حدثت المفاجأة. فقد نودي على اسمك من أجل مكالمة هاتفية، ورأيتك. كنت في عجلة من أمري. لا بدّ من أن نلتقي اليوم، صباحاً، قبل سفري. فالطائرة التي حجزتُ عليها ستغادر بيروت في الواحدة والنصف. سأكون في انتظارك في صالة الفندق من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة. لا أقدر على تأجيل السفر، لا بدّ من رؤيتك. أكتب هذه الرِّسالة ليلاً بعد عودتي من موعد عمل، وسأطلب من موظّف الاستقبال تسليمها لك في ساعة مبكرة من صباح الغد.

تصوّري! كنّا مساء جالسين على مائدتين متجاورتين في الصالة، طيلة ساعة كاملة، دون أن ينتبه واحدنا إلى الآخر!

تحياتي حتى نلتقي. أسامة»

وكان المطر في الخارج يزخّ بقسوة مخيفة.

بغداد

ملفات الآداب القادمة

١٩٩٧

- التجديد في الرواية العربية

- ملامح من الأدب العربي الموريتاني

- كورنل وَسْت: المثقّفُ الأمريكي الأسود: موقفا... ومأزقا!

الآداب على عتبة عامها الخامس والأربعين:

أشد حداثة..
أشد التزاماً